من مظاهر الإعجاز القرآنيّ (10)
بلاغة اللَّفِّ والنَّشْرِ في القُرآن الكريم

1- تعريف (اللَّفِّ والنَّشر) وأنواعه وأغراضُه:

- تعريفه:

عُلوم البلاغة على ما استقرَّ الأمرُ عند المتأخِّرين ثلاثة: علم المعاني وعلم البيان وعلمُ البديع؛ وثالثُها (علمُ البديع) هو الَّذي يُعنى بوجوه تحسين الكلام، بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدِّلالة[1].

ومن جُملة المحسِّنات المعنويَّة الَّتي تندرجُ ضمن علمِ البديع، وليس لها شُهرةٌ كغيرها من المحسِّنات؛ (اللَّفُّ والنَّشرُ)، وقد عرَّفهُ أهل البلاغة بأنَّهُ: «أن تَلُفَّ بين شيئين في الذِّكْرِ، ثم تتبعهما كلاما مشتملا على متعلق بواحد وبآخر، من غير تعيين؛ ثقةً بأنَّ السامع يردُّ كلًّا منهما على ما هو له»[2].

وقد أشارَ إلى هذا المعنى قديمًا المبرِّدُ رحمه الله (ت:285هـ) في (الكامل) فقال: «والعرب تلف الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملة، ثقة بأن السامع يردُّ إلى كلِّ خبره. وقال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[القصص:73]»[3].

ومعنى ذلك أنَّ أسلوب اللف والنشر؛ أشبهُ ما يكون بالإجمال ثمَّ التَّفصيل.

- مثاله:

ومن أمثلته التي يذكرونها: قول ابن الرُّوميِّ:

آرَاؤُكُمْ وَوُجُوهُكُمْ وسُيُوفُكُمْ * في الْحَادِثَاتِ إِذْ دَجَوْنَ نُجُومُ

فِيها مَعَالِمُ لِلْهُدَى ومَصَابِحٌ * تَجْلُو الدُّجَى والأُخْرَيَاتُ رُجُومُ

---

[1] يُنظر: بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ج2، ص224.

[2] السكاكي، مفتاح العلوم، ص425.

[3] المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج1، ص107.

«جاء (اللَّف) في قوله: "آراؤُكم ووُجُوهكم وسُيُوفكم" وجاء (النشر) وفْقَ توزيع مرتب، فقوله: "فيها معالم للهدى" وصفٌ للآراء. وقولُهُ "ومَصَابِح تَجْلُو الدُّجَى" وصف للوجوه. وقوله: "والأخريات رُجُومُ" وصْفٌ للسُّيوف»[1].

ولعلَّ قريبًا منه قول امرئ القيس من قبلُ:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابساً * لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ والْحَشَفُ الْبَالِي

– وأشهرُ مثالٍ قرآنيٍّ لهذا الأسلوب هو قول الله ﷻ في سورة القصص: ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[القصص:73]، «فـ(السكون) راجع إلى (الليل)، و(الابتغاء من فضل الله) راجع إلى (النهار) على الترتيب»[2].

– أغراضُه:

لهذا الأسلوب أغراضٌ بلاغيَّةٌ كثيرةٌ، تدور في مُجملِها على إعطاء المتلقِّي نصيبًا كبيرًا في إعمال فكره وعقله لفهم النَّصِّ، وفي هذا خروجٌ من أسلوب التَّلقينِ النَّمطيِّ، إلى إشراكِ السَّامع أو المخاطَبِ في إدراك المعنى المراد ثقةً به.

ومنها التَّوكيدُ؛ لأنَّ الشيءَ في هذا الأسلوب سيُذكر مرَّتين؛ مرة مُجملاً (في اللف)، ومرّةً مفصَّلاً (في النشر).

ومنها التَّشويق؛ لأنك إذا أجملْتَ ابتداءً (في اللف)؛ بقيت النَّفسُ متشوِّفةً لتفصيل ما أُجمِلَ[3].

وغيرها من الأغراضِ الَّتي تُلتَمَسُ من كلِّ موضعٍ على حدةٍ.

– أقسامُه:

يُقسِّمُ البلاغيُّون أسلوب (اللف والنشر) إلى قسمين:

– لفٌّ ونشرٌ مُرتَّبٌ: وهو أن يذكر (النشر) على ترتيب (اللف)، بأن يجعل الأول للأول، والثاني للثاني على هذا الترتيب، ومثاله آيةُ القصص التي ذكرنا من قبل[4].

---

[1] الميداني، البلاغة العربية، ج2، ص405.

[2] عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص176.

[3] يُنظر: عطا الله العنزي، بلاغة اللف والنشر في النظم القرآني، ص26.

[4] يُنظر: البهاء السبكي، عروس الأفراح، ج2، ص246.

– ولفٌّ ونشرٌ غيرُ مُرتّبٍ: وهو أن يأتي (النشر) على غير ترتيب (اللّف). ومن أشهر أمثلته: قول الله ﷻ في سورة آل عمران: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[آل عمران:106-107]، قال الألوسيُّ رحمه الله (ت:1270هـ): «(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ)؛ تفصيل لأحوال الفريقين، وابتدأ بحال الذين اسودت وجوههم؛ لمجاورته (وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)، وليكون الابتداء والاختتام بما يسر الطبع ويشرح الصدر»[1].

وقال ابنُ عاشور رحمه الله (ت:1393هـ=1973م): «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ)؛ تَفْصِيلٌ لِلْإِجْمَالِ السَّابِقِ، سُلِكَ فِيهِ طَرِيقُ النَّشْرِ الْمَعْكُوسِ، وَفِيهِ إِيجَازٌ لِأَنَّ أَصْلَ الْكَلَامِ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ فَهُمُ الْكَافِرُونَ يُقَالُ لَهُمْ أكفرتم إِلَى آخر: وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

قدّم عِنْدَ وَصْفِ الْيَوْمِ ذِكْرُ الْبَيَاضِ، الَّذِي هُوَ شِعَارُ أَهْلِ النَّعِيمِ، تَشْرِيفًا لِذَلِكَ الْيَوْمِ بِأَنَّهُ يَوْمُ ظُهُورِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ، وَلِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَلِأَنَّ فِي ذِكْرِ سِمَةِ أَهْلِ النَّعِيمِ، عَقِبَ وَعِيدِ بِالْعَذَابِ، حَسْرَةً عَلَيْهِمْ، إِذْ يَعْلَمُ السَّامِعُ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا فِي يَوْمٍ فِيهِ نُعَيْمٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ قَدَّمَ فِي التَّفْصِيلِ ذِكْرَ سِمَةِ أَهْلِ الْعَذَابِ تَعْجِيلًا بِمُسَاءَتِهِمْ»[2].

2– أمثلةٌ على بلاغة (اللَّفِّ والنَّشر) في القرآن الكريم:

– قوله تعالى: ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِين وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[العنكبوت:38-40]. وفي الآيات لفٌّ ونشرٌ مرتب؛ إذِ الَّذِينَ أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَاصِبٌ هُمْ: عَادٌ، وَالَّذِينَ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ هُمْ: ثَمُودُ، وَالَّذِي خَسَفَ بِهِ الْأَرْضَ: قَارُونُ، وَالَّذِينَ أَغْرَقَهُمُ اللَّهُ: فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنْ قومهما[3].

---

[1] الألوسي، روح المعاني، ج2، ص242.

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص43-44.

[3] يُنظر: سعيد مصطفى دياب، مقال (اللف والنشر في القرآن الكريم)، شبكة الألوكة.

قال ابنُ عاشور رحمه الله: «أَفَادَتِ الْفَاءُ التَّفْرِيعَ عَلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ الشَّيْطَانَ زَيَّنَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَمِنِ اسْتِكْبَارِ الْآخَرِينَ، أَيْ فَكَانَ مِنْ عَاقِبَةِ ذَلِكَ أَنْ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمُ الْعَظِيمَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَعَنِ اسْتِكْبَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَلَيْسَ الْمُفَرَّعُ هُوَ أَخْذُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ أَشْعَرَ بِهِ مَا قَبْلَ التَّفْرِيعِ، وَلَكِنَّهُ ذُكِرَ لِيُفْضَى بِذِكْرِهِ إِلَى تَفْصِيلِ أَنْوَاعِ أَخْذِهِمْ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: (فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً) إِلَى آخِرِهِ، فَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ (فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ) إِلَخْ؛ لِتَفْرِيعِ ذَلِكَ التَّفْصِيلِ عَلَى الْإِجْمَالِ الَّذِي تَقَدَّمَهُ، فَتَحْصُلُ خُصُوصِيَّةُ الْإِجْمَالِ ثُمَّ التَّفْصِيلِ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى عَظِيمِ تَصَرُّفِ اللَّهِ.

فَأَمَّا الَّذِينَ أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَاصِبٌ فَهُمْ عَادٌ [...] وَالَّذِينَ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ هُمْ ثَمُودُ. وَالَّذِينَ خَسَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ هُوَ قَارُونُ وَأَهْلُهُ [...] وَالَّذِينَ أَغْرَقَهُمْ: فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنْ قَوْمِهِمَا. وَقَدْ جَاءَ هَذَا عَلَى طَرِيقَةِ النَّشْرِ عَلَى تَرْتِيبِ اللَّفِّ»[1].

– قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً**﴾[الإسراء:29]. «الْمَحْسُور: المنهوكُ القوى، والّذي لم يَبْقَ معه مالٌ من كثرة الإنفاق، يقال لُغةً: حَسَر القوم فلاناً، إذا سألوه فأعطاهم حتى لم يَبْقَ معه شيء.

جاء اللَّفُّ المفصَّل هنا في النّهي عن البخل وعن التبذير بعبارة (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط).

وجاء النشر مرتَّباً على وفق ترتيب اللّف، وذلِكَ لأنّ اللَّوْمَ يكون على البخل الذي جاء في العبارة أوّلاً، وإنْهاكَ الْقُوى وخُلُوَّ الْيَدِ من المال يكون بسبب التبذير»[2].

– قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[البقرة:111]. الضمير في (قالُوا) لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وذُكِر الفريقان على وجه الإجمال بالضمير العائد إليهما، ثم ذكر ما لكل منهما، أي: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى.

---

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص251.

[2] الميداني، البلاغة العربية، ج2، ص405.

فلف بين القولين إجمالا؛ ثقة بقدرة السامع على أن يرد إلى كل فريق قوله، وأمنا من الالتباس، وذلك لعلمه بالتعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه بدعوى أنه داخلٌ الجنَّةَ هو لا صاحبُه[1].

قال السُّيوطيُّ رحمه الله: «قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) أَيْ وَقَالَتِ الْيَهُودُ: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا الْيَهُودُ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا النَّصَارَى. وَإِنَّمَا سَوَّغَ الْإِجْمَالَ فِي اللَّفِّ؛ ثُبُوتُ الْعِنَادِ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِدُخُولِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ الْجَنَّةَ، فَوُثِقَ بِالْعَقْلِ فِي أَنَّهُ يَرُدُّ كُلَّ قَوْلٍ إِلَى فَرِيقِهِ لِأَمْنِ اللَّبْسِ، وَقَائِلُ ذَلِكَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ وَنَصَارَى نَجْرَانَ»[2].

– قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى**﴾[الضحى:6-8]. «هذه الجمل الثلاث تضمَّنَتْ أفكاراً ثلاثة مفصَّلة، فهي لفٌّ مُفَصَّل، وجاء بعدها نَشْرٌ غَيْر مُرَتَّب على وفق ما جاء في هذا اللّف:

فجملة: {فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ} [الآية: 9] ملائمة للجملة الأولى ومتعلّقة بها.

وجُمْلَةُ: {وَأَمَّا السآئل فَلاَ تَنْهَرْ} [الآية: 10] ملائمة للجملة الثالثة ومتعلّقة بها.

وجُمْلَةُ: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الآية: 11] ملائمة للجملة الثانية ومتعلّقة بها، لأن معنى: {وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى} ووجَدَكَ جَاهِلاً فعَلَّمَكَ مَسَائل الدّين، وهي النّعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليه وعلى الناس، وأتمَّها يوم أنزل على رسوله قوله في سورة المائدة: (اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً)[المائدة:3]. فالتحديث بِنِعْمَةِ اللَّهِ هو تَبْليغُ هذا الدّين وهدايةُ الناس إليه وتَعْلِيمُهم إيّاه.

والحكمةُ في الترتيب الّذِي جاء في اللّف موافَقَةُ التَّرْتِيبِ الذي حَصَل في حياة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فالإيواءُ من اليُتْمِ كان أوّلاً، والهدايةُ جَاءَتْ ثانياً قَبْلَ النبوّة وبعدها، والغِنَى جَاء ثالِثاً.

والحكمةُ في الترتيب الذي جاء في النشر على خلاف الترتيب الذي جاء في اللّفّ: أنَّه جاءَ بتكاليف يَحْسُنُ فيها قَرْنُ النظائر بعضها مع بعض، فالنَّهْيُ عن قهر اليتيم يلائمه النهي عن نَهْرِ

---

[1] يُنظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص178.

[2] السيوطي، الإتقان، ج3، ص320.

السائل، وبَعْدَ ذَلِك يَحْسُن الخَتْمُ بالأمْرِ بتبليغ الدّين والتحديثِ بما أنعم اللَّهُ به على رسوله من عِلْمٍ وهُدى»[1].

– قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾[البقرة:214]. وتوجيه الآية على (اللف والنشر) يُخرجنا من شُبهة الطعن في عصمة الأنبياء؛ إذ في الآية قائل ومقول، والقائل طرفان: الرسول، والذين آمنوا معه، والمقُول شيئان أيضًا: متى نصر الله، وألا إن نصر الله قريبٌ؛ فالقوم استبطأوا النصر وقالو: متى نصر الله؟ والرسول قال لهم: ألا إن نصر الله قريبٌ. قال الزركشيُّ رحمه الله: «فنسبة قوله: (متى نصر الله) إِلَى قَوْلِهِ: (وَالَّذِينَ آمَنُوا) كَنِسْبَةِ قَوْلِهِ: (يَقُولُ الرَّسُولُ) إِلَى (أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) لِأَنَّ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَبَايِنَيْنِ يَصْدُرَانِ عَنْ مُتَبَايِنَيْنِ»[2].

والأمثلة على هذا كثيرةٌ، ولكنَّ الغرضَ الإشارة لا الاستقصاءُ.

---

[1] الميداني، البلاغة العربية، ج2، ص406.

[2] الزركشي، البرهان، ج3، ص461.